



و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

وهو القاهر فوق عباده

رواء الاثنين | دهند القحطاني

هـ ١٤٤٦/٦/٨



(وهو القاهر فوق عباده)

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَعِذُّ بِهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مِنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ..
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَزَلَّ الْجَبَابِرَةَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مَفْرَقَ الْفِرَاعِنَةَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مَذَلَّ الْأَبَاطِرَةَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ نَاصِرَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَجَابِرَ الْمُنْكَسِرِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ.

لا شكَّ أنَّ المشاعر التي شهدناها خلال اليومين الماضيين كانت مختلفة، سواء لمن كان قريباً من الأحداث، أو لمن له قريب، أو يعرف أحداً ممن تأثر بها، أو حتى لمن كان بعيداً عنها، فقد فرح الجميع لفرحة هؤلاء المستضعفين والمظلومين، الذين شاهدنا مقاطع وفيديوهات توثق تحريهم من تلك المسالخ البشرية، هذه الأيام لا يمكن وصفها إلا بأنها أيام من أيام الله، وكما يقول الله عز وجل: {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} (إبراهيم، ٥).

حقاً، من عاش هذه الأحداث ووصل إلى فجر يوم أمس، الموافق ٦-٦-٢٠١٦، فقد شهد حدثاً استثنائياً بكل المقاييس، هذا الحدث يحمل أهمية تاريخية لا تقل عن أحداث محورية، مثل انهيار جدار برلين، أو نهاية الحربين العالميتين، الأولى والثانية، بل إن قيمته التاريخية لا تقل أيضاً عند مقارنة أحداث أمتنا الإسلامية من عهد النبي ﷺ، كمعركة بدر أو أحد أو الأحزاب. إنه بلا شك يوم مفصلي من أيام الله عز وجل. ولذلك، فإنَّ الله عز وجل يحبّ منّا حينما نعيش مثل هذه الأحداث، أن نتأملها ونتعلّم منها، وأن نفكر فيها بعمق دون أن تمرّ علينا مرور الكرام، ليس مهماً الدخول في التفاصيل السياسيّة، مثل من كان السبب ومن جاء بعد ذلك، ما يهمنا الآن هو أن نعود إلى القرآن الكريم، إلى وحي الله عز وجل، وأن نرتدي "نظارة الوحي" لنقرأ الأحداث من منظور الوحي الإلهي.

تأملوا قول الله عز وجل في سنه الكونية التي نراها اليوم بوضوح، بعد أن كنّا نقرأها كآيات نظرية فقط، نعتقد أنها تخصّ أقواماً مثل فرعون أو ثمود أو عاد، قال تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۗ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الأنعام، ٤٤-٤٥)،

هذه الآيات تُظهر سنة من سنن الله عز وجل الكونية، عندما يريد الله أن يهلك الطغاة أو المجرمين، فإنه لا يأخذهم في لحظة ضعف أو استعداد، بل يأخذهم وهم في قمة قوتهم وجبروتهم، وهم في عروشهم وفي عزّ تمكينهم. انظروا إلى فرعون، قال: "سأريكم ما أرى"، وقال: "أليس لي ملك مصر"، و"تلك الأنهار تجري من تحتي"، ظنّ في لحظة ما أنه يمتلك الملك والقوة، وأنه ربهم الأعلى، وأنّ كلّ شيء يجري تحت سلطانه، ولو أراد أن يستعين بكلّ ما في الأرض فسينقذونه، ولكنّه لم يدرك أنّ الله عز وجل حينما يريد أمراً سيذهب بكلّ خطئك، فالله يمهّل الظالم، ولكن عندما يقرر أن يأخذه، فإنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

يقول الله عز وجل: **{قَلَمًا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ}** (الأنعام، ٤٤)، وهنا تتجلى سنة الله في الطغاة والمتجبرين، حين يسرفون في الظلم ويتوهمون أنّ القوة بأيديهم، بينما يشعر الضعفاء باليأس، ويظنون أن لا أمل في التغيير، لكنّ الله سبحانه يقول: **{فَأَخَذْنَاَهُمْ بِعَقَّةٍ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}**، فنتهار عروشهم وجبروتهم كأوراق الدومينو، تلك التي شيّدوها على مدى أكثر من خمسين سنة، ثمّ في لحظات قليلة وأيام معدودة، تكون بأيدي أناس أقلّ منهم عدّة وعتادًا.

ويصف الله عز وجلّ حالهم في قوله: **{كَذَلِكِ وَأَوْزَنَّاَهَا قَوْمًا آخَرِينَ* فَمَا بَكَثَ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ}** (الدخان، ٢٨-٢٩)، هؤلاء الطغاة بعدما كانوا يحيطون أنفسهم بالمؤيدين والمدافعين، يتنصّل منهم الجميع في النهاية، ولا يبقى لهم ذكرٌ يبكي عليه.

أما المؤمنون الصالحون، فالسما والارض تبكي عليهم، والمكان الذي كانوا يصلّون فيه ويقيمون الليل عليه يفتقدهم، والمصلّى الذي تعود على قيامهم وسجودهم يشهد لهم يوم القيامة، السماء التي كانت ترفع أعمالهم الصالحة تبكي لغيابهم أيضًا، لأنّهم كانوا عبادًا لله يتقربون إليه بصدق، أمّا هؤلاء الظلمة، فقد حرموا من هذا الشرف، فلن تبكي عليهم السماء ولا الأرض.

هذا الحدث الذي مرّ علينا قد يكون بداية لخير عظيم، أو قد تعقبه أحداث متعترّة، وربّما تأتي ظروف أصعب، قد ينتصر المسلمون اليوم ويعانون غدًا، مثلما انتصروا في بدر ثمّ هزموا في أحد.

لكن إذا نظرنا إلى الشريط العام للأحداث، نجد أنّ الله عز وجلّ يسير هذه الأمة نحو نصر تسقط له كلّ الدول، لكنّ المهمّ الآن أن نتذكّر أنّ هذه الأمة موعودة بالنصر والتمكين إلى قيام الساعة، وأنّ الله عز وجلّ كتب لها الخلود والانتصار، وسيبلغ نصرها كلّ بيت وكلّ مدر قبل نهاية الزمان.

ما يحدث الآن هو بشرى عظيمة، وفيه طمأنة لقلوبنا. علينا أن نفرح بالنصر الذي تحقّق اليوم، دون أن نقلق كثيرًا بشأن ما سيأتي بعده، لأنّ الله الذي نصرنا اليوم هو القادر على تدبير أمور الغد، نعم يجب الاستعداد والأخذ بالأسباب، ونسأل الله لهم السداد، ولو عدنا للقرآن نجد قول الله عز وجلّ عن مثل هذه الأحداث العظيمة: **{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}** (الأنفال، ١٠).

معنى هذه الآيات والكلمات يتجلى عندما تشتدّ المصاعب، وتبدو الأحداث مظلمة، وكأنه لا أمل في الأفق لنصر أو فرج للمسلمين، الله عز وجلّ يخاطب قلوبنا التي قد تشعر بالضيق من كثرة الظلم والمجازر والقصف، سواء في غزة أو في أماكن أخرى، وكأنّ النصر بعيد، لكنّه يذكرنا في قوله تعالى: **{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ}** (الأنفال، ١٠) بأنّ النصر آتٍ، وأنّ قلوب المؤمنين يجب أن تطمئنّ لوجود ربّ قهار، قادر على قهر الجابرة وإذلال الأباطرة.

لكنّ هذا النصر له وقت وأجل يعلمه الله، وهو مؤجّل لحكمة إلهية، ليس فقط لصالح المؤمنين، بل أيضًا لصقل الأمة وإعدادها، يقول تعالى: **{حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ۗ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}** (يوسف، ١١٠).

تأمّل هذا التعبير "استيأس الرسل"، فالذي وصل إلى غاية اليأس ليس أنا أو أنت، بل هم الرسل أنفسهم، الذين كانوا في قمة الإيمان والثبات، لم يقل: "يأسوا" بل "استيأسوا" وهذا كناية عن غاية اليأس، وأنّ الدنيا أظلمت عليهم، ولا بادرة للفرج تلوح في الأفق، فقد وصلت بهم الشدّة إلى الظنّ بأنّ الطريق الذي سلكوه ربّما

يكون خاطئاً، أو أنه يجب عليهم السكوت والخضوع للذل، وتقبل اغتصاب نساتهم وذبح أبنائهم، لكن الله عز وجل يؤكد أن النصر يأتي في اللحظة التي يظن فيها أنه بعيد المنال.

إذا نزل بأس الله من السماء، فلا قوة في الأرض تستطيع رده، لا طائرات، ولا صواريخ، ولا أي تقنية بشرية قادرة على الوقوف أمام إرادة الله، كما يقول الله عز وجل: **{وَلَا يَرُدُّ بَأْسَنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}** (يوسف، ١١٠)، الله سبحانه يربينا على هذه البشرية، على الاطمئنان إلى وعده، وعلى الثقة بأن النصر قادم مهما طال الزمن. الحدث الذي حصل خلال هذه الأيام لم يكن متوقعاً، وكان بعيداً عن الأذهان، فالعيون والأنظار كلها على غزة وفلسطين، وكانوا قد نسوا تلك القضية، وظنوا أنها انتهت، لكن الله عز وجل يذكر عباده بأن عينه لا تغفل عن عباده المستضعفين دون أن يعرف أحد بذلك، كما يقول عز وجل عن الأقوام السابقة: **{مَسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرَ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}** (البقرة، ٢١٤).

تأمل حال هذه الفتاة التي دخلت السجن وعمرها تسعة عشر عاماً، وخرجت بعد عشرين سنة، وهي الآن في عمر التاسعة والثلاثين، ولديها ثلاثة أبناء لا تعرف من هم آبائهم، عشرون عاماً من عمرها، عمر جيل كامل قضته في ظلام السجن، وظلم المسالخ البشرية، سنوات طويلة مليئة بالألم والضيقة، هل كانت لتختل خلال تلك الفترة أن هناك من يسمع صوتها أو من سيأتي لينقذها؟ ربما كانت تدعو الله في السنة الأولى، والثانية، وحتى العاشرة، ولكن هل كانت تظن أن تلك الدعوات ستصل أو تستجاب؟

الله عز وجل لا يضيع دعوة مظلوم، ولا يغفل عن صرخة مستضعف، كل دعوة تصل إليه سبحانه، وكل صرخة ترفع إليه، ولكن لها وقت وأجل يعلمه وحده، لذلك يقول الله عز وجل: **{حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرَ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}** (البقرة، ٢١٤).

في تلك اللحظة التي انتصر فيها الروم على الفرس، كان ذلك حدثاً بعيداً عن الجزيرة العربية، حيث كان المسلمون في مكة، في قريش، يتابعون الأخبار عن تلك المعركة المصيرية بين الفرس والروم، والملفت أن المسلمين في مكة كانوا يميلون إلى أن ينتصر الروم، لأنهم كانوا من أهل الكتاب، بينما كان الوثنيون من أهل قريش، الذين يعبدون اللات والعزى يتمنون انتصار الفرس، لأنهم يشبهونهم في دينهم الوثني، في هذا نزلت سورة الروم، فقال الله عز وجل: **{الْم (١) عَلَيَّتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۗ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ ۗ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعَدَّ اللَّهُ ۗ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ۗ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦)}** (الروم، ١-٦).

إن هذه الأمور القدرية لا يمكن أن يعرفها أو يدركها أحد سوى الله عز وجل، ولذلك من المهم أن نعيش في هذه اللحظات مع اسم الله "القهار"، ونفكر في الأحداث من منظور بعيد عن الخوض في تفاصيل وخفايا الأمور.

تخيّلوا ذلك الطاغية الجبار الذي عاش طوال تلك السنوات متسلطاً على المساكين، معتمداً على قوته وجبروته، محاطاً بالدعم من أكبر الدول العالمية، وكان الجميع يعمل على إبقاء سلطته، لكن وفي لحظة واحدة، تغير كل شيء، من الذي قهره؟ من الذي سوى الأمور بكل بساطة وبتقديره؟ إنه الله عز وجل الذي أراد أن تكون كلمته هي العليا، وليس كلمته هو.

تعالوا معي لنشاهد اسم الله "القهار" في حادثة وقعت في أيام الفراعنة، في بيت فرعون نفسه، حينما أسلمت آسيا، فجئن جنون فرعون، كيف لزوجته أن تسلم؟

قد يكون من الممكن أن يسلم آخرون، لكن زوجته التي هي في بيته، تؤمن بهذا الدين! بالطبع جئن جنونه، وهي كانت على معرفة حقيقية بفرعون، وتعرف ما سيحدث لها، وبالفعل لم يخيب ظنّها، أوتد لها أوتادًا في الأرض، أي ضرب يديها ورجليها بمسامير، وصلبها على الأرض تحت حر الشمس بالحبال، تثبتها على الأرض لتموت ببطء احتراقًا تحت أشعة الشمس،

تصوّروا، نحن عندما نخرج في حرّ الشمس، نشعر بضيق ونبحث عن مكان مظلل، حتى ولو لبضع دقائق، تلك المسافة ما بين السيارة وباب المنزل ترعجنا، فكيف كان حال آسيا وهي تجلس في الشمس لساعات طوال في وسط النهار! كانت الملائكة تظللها من الشمس، هي الآن مثبتة بالأوتاد، لكنّ ألطاف الله تأتي وسط البلاء، فالله عزّ وجلّ أراد لها المقام الأعلى.

ولذلك قال النبي ﷺ بعد موت آسيا امرأة فرعون بمئات السنين: **[كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرًا، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ]** (١)، والأحاديث في فضل آسيا زوجة فرعون كثيرة ومتواترة. ولأنّ الله عزّ وجلّ أراد لها الفضل العظيم، كان لابدّ لها من البلاء، وهذا البلاء كان وقتيًّا، ربما استمرّ عذابها ثلاثة أيام، أو أربعة، أو حتى ستة أيام، ثم ماتت. لكنّ هذا العذاب بكلّ ما فيه من ألم، كان صغيرًا مقارنة بما أراده الله لها من الخلود والنعيم السرمديّ في الجنة. كلّ ما عانتها في تلك الأيام، لا يساوي شيئًا أمام مقامها في النعيم الأبديّ في الجنة.

في لحظة العذاب، لم تطلب آسيا النجاة من العذاب، ولو قالت "ربّ نجني" قد يستجيب الله لها، لكنّها قالت: **{رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ}** (التحریم، ١١)، لم تكن تخاف سوى على دينها، ولم تطلب إلاّ النجاة من فتنهم، اختارت أن يكون لها بيت عند الله في الجنة، وهذا مقام عالٍ جدًّا، نحن عندما ندعو، قد نستحي أن نطلب الفردوس الأعلى، لأنّه مقام الأنبياء، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين. فنقول: "أنا أينني من سكان الجنة هؤلاء، أينني من الفردوس؟" لكنّ آسيا قالت بكلّ يقين: **{رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ}** وبالفعل، بشرها الله بذلك، وكانت الملائكة تظللها وهي تتعدّب.

هذا اليوم من أيام الله، يذكّرنا باسم الله "القهار"، الذي قهر الجبارة ورفع عباده المؤمنين.

اللفظتان "القاهر" و "القهار" وردتا في القرآن الكريم، وقد جاءت لفظة "القاهر" مرّتين في سورة الأنعام، وهي سورة مكيّة، في قوله تعالى: **{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}** (الأنعام، ١٨ - ٦١)، كما جاءت لفظة "القهار" في عدّة مواضع أخرى في سور مكيّة.

من ذلك ما ورد في سورة يوسف، حين كان يوسف يتحدّث إلى صاحبيّ السجن، وفي سورة الرعد، وفي سورة إبراهيم.

جاء التعريف بهذه الصفة العظيمة لله عزّ وجلّ في سور مكيّة نزلت متتالية، في وقت كان المسلمون فيه مستضعفين في مكّة، على عهد النّبِيِّ ﷺ في لحظات التعذيب والاستضعاف التي عاشها المسلمون الأوائل في مكّة، حيث كان الأذى يُصبّ عليهم صبّاً،

نزلت آيات السور المكيّة تلك، التي تذكّرهم باسم الله "القهار"، جاءت هذه الآيات في ظروف قاسية، حيث كان بلال يُسحب على الرمال الحارقة في رمضاء مكّة، وكانت سميّة يدخل بالرمح من أسفلها ويخرج من صدرها حتّى استشهدت، وغيرهما من الصحابة الذين ذاقوا شتى أنواع العذاب، بل بعضهم قُتل تحت وطأة التعذيب. الله عزّ وجلّ عرف المسلمين في تلك اللحظات التي اعتراهم بها الضعف، وعدم القدرة على المقاومة والتغيير، عرفهم باسمه "القهار" ليفرس في قلوبهم ويربّبهم على أنّ الأمر كله بيده، وأنّه القاهر فوق عباده، القادر على تغيير الأحوال مهما بلغت شدتها.

كان ذلك درساً في الإيمان بأنّ القهر الإلهيّ ليس مقتصرًا على الظالمين والطفافة، بل يشمل كلّ شيء، حتّى قلوب العباد وأهواءهم.

فالله عزّ وجلّ قادر على أن يقهر القلوب لتفعل ما لم تكن تتخيّل فعله، قد تجد نفسك تميل إلى من كنت تعاديه يومًا، أو تحبّ من كنت تكره، فتميل وترتاح له، فتتعجّب كيف تغيّر قلبك هذا التغيير، وكذلك الأمر مع ما قد تعتقد أنّك لا تستطيع تركه، خاصّة إذا كان من المحرّمات، فإذا لجأت إلى الله واستعنت به، قهر قلبك وجوارحك على التخلّي عنه والابتعاد عنه، فإذا كرّهاها الله عزّ وجلّ إليك، وقهر قلبك ونفسك على كرّهاها، حتّى لو كنت تجد فيه متعة وسعادة في السابق، تجد نفسك بلا رغبة ولا قوّة لفعله مرة أخرى. لماذا؟ لأنّ الله هو القهار.

واسم الله "القهار" لا يقتصر فقط على قهر الظالمين والجبّارين، بل يشمل جميع مناحي الحياة. يظهر هذا القهر الإلهيّ في كلّ المعاني، من الأمور العظيمة الكبرى إلى التفاصيل الصغيرة في حياتنا اليومية.

قد تجد الله عزّ وجلّ يهيئ الأسباب، ويقهر الظروف لأمر لم تكن تتوقعه. فتظنّ أنّه باب مغلق تمامًا، ولا أمل في فتحه، فإذا به يُفتح بأمر الله، فتأمل كيف أنّ كلّ ما يبدو مستعصيًا، وكلّ ما تظنّ أنّه بلا حلول، يأتي الله عزّ وجلّ بقدرته فيقهر الظروف ويحدث التغيير الذي لم يكن في الحسبان.

قد يحدث أن يطلب شخص الزواج من امرأة، ويواجه الأب الذي يضع ألف شرط وشرط، فتظنّ أنّ هذا الزواج مستحيل ولن يتمّ، لكنّ إرادة الله عزّ وجلّ تجعل هذا الزواج يتمّ رغم كلّ الصعوبات، وعلى النقيض قد يأتي شخص آخر، وتجد أنّ كلّ الأمور ميسّرة وسهلة، ويظهر الأب متساهلاً في كلّ شيء، ولكنّ الله لا يكتب لهذا الزواج أن يتمّ. فمن الذي أتمّ الزواج الأوّل رغم الصعوبات؟ ومن الذي حال دون إتمام الزواج الثاني رغم سهولته؟ إنّ الله عزّ وجلّ، القهار الذي يقهر الأسباب.

نحن نبذل الأسباب ونسعى، لكننا نعلم أنّ يد الله فوق كلّ شيء، وأنّه وحده الذي يدبر الأمر، يجب أن يكون القلب متوكّلاً على الله طوال الوقت، وفيه يقين بقول الله تعالى: **{والله يعلم وأنتم لا تعلمون}** (البقرة، ٢١٦)، وقال تعالى: **{يَا نَبِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ۗ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}** (يوسف، ٨٧)،

وهذا في كلّ أمور الحياة، نجد أمثلة على أنّ الرزق والتيسير بيد الله عزّ وجلّ وحده، قد تجد مطعمين، أحدهما بسيط وعاديّ، والآخر مزين بديكور جذاب ومبهرج، ومع ذلك يكون الرزق موفورًا للمطعم البسيط

أكثر من الآخر، رغم أنّ الأخير قد يكون بذل جهدًا كبيرًا، وربّما خفّض الأسعار لجذب الزبائن، فلماذا يكون الرزق مكتوبًا في مكان، وموصدًا عن آخر؟

لذلك ينبغي أن تتعلّق قلوبنا باسم الله "القهار"، الذي يقهر الظروف ويسخرها لما يشاء.

فرعون الذي رأى في منامه نبوءة زوال ملكه على يد فتى من بني إسرائيل، عمد إلى قتل جميع أطفالهم الرضع بلا هوادة، كان جبروته عظيمًا لدرجة أنّه جعل كلّ امرأة من بني إسرائيل تعيش في خوف دائم، تعلم يقينًا أن وليدها إذا وُلد، لن يلبث إلّا ليذبح أمام عينيها، رغم هذه الوحشية، فإنّ إرادة الله عزّ وجلّ كانت أعظم وأقهر من تدابير فرعون، فعندما جاء موسى، أراد الله أن تكون ولادته في السنّة التي يقتل فيها الأطفال، لا السنّة التي يعفى فيها عنهم.

ولو وُلد موسى في السنّة التي يعفى فيها الأطفال، لكان الأمر أهون وأسهل، لكنّه سبحانه أراد أن يظهر لنا عظيم قدرته وقهره لكلّ شيء، وأوّل ما يكون بأن يهيئ الله الأسباب، فما عاد هناك أحد يخدم فرعون وحاشيته بعدما قتل جميع الأطفال، وظلّ كبار السن فقط، الذين لا ينفعون بشيء، فأوحى الله إلى أمّ موسى أن ترميه في التابوت وتلقيه في البحر، ليصل التابوت إلى قصر فرعون ذاته، وهنا يظهر القهر الإلهي مرّة أخرى؛ فقد أخذت امرأة فرعون موسى وطلبت من زوجها أن يبقيه.

فرعون الذي كان يقتل أطفال بني إسرائيل بلا تردّد، لم يذبح موسى رغم وجود احتمال لأن يكون فتى بني إسرائيل الموعود بزوال ملكه. كيف حدث هذا؟ وما الذي جعل فرعون يتراجع عن ذبحه رغم وساوسه المستمرة وهاجسه الدائم بشأن تلك النبوءة؟

هنا يتجلّى التدبير الإلهي وقهر الله فوق عباده، الله سبحانه ألقى على موسى محبةً منه، كما قال في كتابه العزيز: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ غَيِّبِي} (طه، ٣٩)، كان موسى محببًا لمن يراه، لا يستطيع أحد مقاومة وجهه أو النظر إليه دون أن يخطف قلبه ويقع في حبه.

زوجة فرعون آسيا، التي رأت موسى أوّل مرة لم تستطع أن تقاوم، مع أنّ موسى عليه السلام لم يكن طفلًا جميلًا بالشكل الذي يخطف الأبصار، بل قيل إنّه كان أسمر البشرة وآدم اللون، على عكس يوسف عليه السلام الذي وُصف بجماله، لكن إذا أراد الله عزّ وجلّ شيئًا فإنّه يلبّن الأسباب ويهيئها، فلا تسأل حينها عن قهر الله عزّ وجلّ، فاستعطفت آسيا فرعون أن يبقيه، فنشأ وترعرع هناك، ظلّ موسى في بيت فرعون ثلاثين عامًا، حتّى إنّ سمي "موسى ابن فرعون".

فتخيّلوا أنّ موسى تربى في قصر فرعون ذاته، حيث أراد الله أن ينشأ نشأة الملوك، ويتعلّم الفروسية والشجاعة والأنفة، بعيدًا عن الذلّ والعبودية التي عاشها بنو إسرائيل، لأنّه كان مهيبًا لدور عظيم. أمّا يوسف عليه السلام ففي قصّته المعروفة، كان مظلومًا وألقي في السجن دون ذنب، عادةً إذا جاء ملك بشيخ يفسّر له حلمًا، يقدّم له هدية أو مكافأة مالية، لكن هنا لم يكتفِ الملك بذلك بل خير يوسف عليه السلام بكلّ الوظائف والوزارات، سأله ماذا يريد أن يكون؟ وأي الخزائن يحكم؟ ثمّ جعله مسؤولًا عن خزائن الأرض، وهنا يتجلّى قهر الله عزّ وجلّ للأسباب وتدبيره، يوسف لم يفعل شيئًا سوى أنّه فسّر الرؤية، ولكنّ الله هو الذي ألهم الملك وعرفه ببراءة يوسف عليه السلام، وصدقه وإحسانه، فجعله على خزائن الأرض.

ثم تأمل معي هؤلاء الذين عاشوا تحت القهر، أولئك الذين شاهدناهم في مقاطع بالآلاف، أحدهم يسأل: "هل من يقوم بهذه الحرب صدام حسين؟"، يظن أنه ما زال في ذلك العهد، قبل ثلاثين أو أربعين سنة، وكأن الزمن توقّف عندهم، أولئك الذين كانوا يعيشون تحت رحمة الطفافة، من كان سينصرهم إلا القهار؟ حتى إن أحدهم خرج يحكي قصته ويحلف بالله قائلاً: "اليوم كان موعد إعدامنا، بعد نصف ساعة فقط، كنّا أربعة وخمسين شخصاً معدّين للإعدام".

كيف يمكن للإنسان أن يتخيّل قهر الله يأتيه من حيث لا يتوقّع؟ وكيف كان حال السجّان، ذلك الذي كان يتوّعد السجناء بالموت، معتقداً أنّ نصر الله لا يمكن أن يأتي إلا في توقيت محدّد؟ ولكنّ الله القهار قهر هؤلاء الظلمة، وأبرأ المظلومين.

قالت عائشة رضي الله عنها: "إنّ النبيّ ﷺ إذا تعوّر، أو تضور من البيت، -يعني إذا تقلّب في الليل-، كان يقول: [لا إله إلا الله الواحد القهار، ربّ السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار]، تأمل قوله "لا إله إلا الله الواحد القهار"، نحن ماذا نقول وماذا يخطر على بالنا فور استيقاظنا؟ سيكون هو أقرب شيء إلى قلبك، فلو كنت تفكّر بأبنائك سيخطر على بالك أولاً، ماذا أكلوا، وماذا شربوا، وهل ناموا جيّداً، فما يشغلك خلال يومك، هو ما ستقوم عليه. النبيّ ﷺ كان قلبه معلقاً بصفات الله، فكان أوّل ما يخطر على باله عند الاستيقاظ كيف أنّ الله يدبّر مجريات الأسباب كيف يشاء، ويحقّق مقاديره بغير أسباب.

كان النبيّ ﷺ يرّد التهليل: "لا إله إلا الله الواحد القهار"، ويجعلها جزءاً من يومه وذكره، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: "إنّ النبيّ ﷺ تحدّث عن يوم القيامة، وبين أنّه سيكون هناك صيحتان: الصيحة الأولى التي يموت فيها كلّ الناس، والصيحة الثانية التي يُبعثون فيها"، ففيما بين الصيحتين، ينادي منادٍ: "يا أيّها الناس، أتتكم الساعة"، حتّى يسمعها الأحياء والأموات، ثم ينادي المنادي: "لمن الملك اليوم؟"، فلا يجيبه أحد، فيقول الله عزّ وجلّ مجيباً نفسه جلّ جلاله: "لله الواحد القهار" (٢).

في ذلك اليوم العظيم، أين الجبارة؟ وأين الأكاسرة؟ وأين الفراعنة؟ وأين المتجبرون؟ وأيّ إنسان ظنّ أنّه يستطيع بظلمه ومنصبه أن يقهر الآخرين؟ كلّهم يفقدون القدرة على الردّ أو المقاومة أمام عظمة الله، قال الله تعالى:

{لَمَنَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} (غافر، ١٦)

ما معنى اسم الله القهار؟

يقول الإمام الطبري: "القهار هو المذلّ المستعبد خلقه، العالي عليهم"،

وبيّن ذلك بقوله: "فوق عباده"، لأنّه وصّف نفسه تعالى ذكره بقهره إيّاهم.

ويقول الزجاج: "والله تعالى قهر المعاندين بما أقام عليهم من الآيات والدلالات على وحدانيّته، وقهر الجبارة من خلقه بعزّ سلطانه"، أمّا الخطابيّ فقال: "القهار هو الذي قهر الجبارة من عتاة خلقه بالعقوبة"،

فأيّ إنسان على عناد مع الله عزّ وجلّ، خف من قهره، خف من أن يقهر الأسباب التي تتعلّق بها، والعتاة هم أولئك الظلمة والمجرمون، الذين يفسدون في الأرض، والله سبحانه يقهرهم بجبروته وسلطانه، مثلما يقهر المعاندين الذين يتحدّون أمره،

٢ أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

كما قال الشيخ السعدي: "القهار لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات العلوية والسفلية"، والمخلوقات العلوية هي الملائكة في السماوات، والسفلية الشياطين، والجن، والمردة، والإنس على الأرض. وأضاف: "فلا يحدث حادث، ولا يسكن ساكن، إلا بإذنه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وجميع الخلق فقراء إلى الله عاجزون لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا".

إِذَا مَا الَّذِي يَنمو فِي القَلب مِن مَعْرِفَةِ هَذَا الاسم؟

من الدروس التي نتعلمها من هذه الأحداث، أنّ القلب يطمئن إلى قهر الله عندما يدرك أنّ الله القهار هو الملجأ والركن الشديد الذي لا يخيب من التجأ إليه، فهو يسمعك ويسمع دعائك.

يُحكى أنّ الحجاج بن يوسف، المعروف بيطشه وظلمه، وكان أسهل ما عليه أن يقتل إنساناً، كان يطوف بالكعبة، فمرّ به رجل من اليمن، وحدث أن علق شيء من سيف هذا الرجل أو رداءه بملبس الحجاج. أثار ذلك الحجاج فقال: "أتتوني به"، من الذي تجرأ وفعل هذا، فلما جيء بالرجل، سأله الحجاج: "من أين أنت؟"، فقال: "أنا من اليمن"، فقال: "أتعرف من أنا؟"، قال: "لا ما عرفتك"، فقال الحجاج: "ومن واليكم؟"، فأجاب الرجل: "فلان بن فلان"، وكان والي اليمن أخ الحجاج، فردّ الحجاج: "ذاك أخي"، ولم يدرك الرجل أنه يتحدث مع الحجاج نفسه، فقال معترضاً: "فلان بن فلان أخو الحجاج!"، وكأته يشير إلى ظلمهما، فقال الحجاج: "تعرف من أنا؟"، فأجابه الرجل: "لا"، فقال الحجاج: "أنا الحجاج"، وكأته ينتظر من الرجل أن يخشى عقابه، ولكنّ الرجل ردّ بكلّ ثقة ويقين: "أو تظنّ أنّ أخاك يعتزّ بك أكثر من عزّي بالواحد الأحد؟" أي هل تحتمي بأخيك؟ أنا لديّ الله الواحد الأحد.

يقول ابن طاووس الذي كان حاضراً تلك الحادثة، إنّه عندما قال الرجل: "أو تظنّ أنّ أخاك يعتزّ بك أكثر من عزّي بالواحد الأحد؟" وقف شعر جسده من عظمة تلك الكلمات، فهابه الحجاج، وتركه وشأنه ليكمل طوافه.

إِذَا مِمَّا يطمئن قلب الإنسان حقيقة، هو إيمانه بأنّه يركن إلى الله القهار، الله عزّ وجلّ يقول في كتابه الكريم: **{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}** (إبراهيم، ٤٢)، فلا يظنّ إنسان أنّ الله غافل عمّا يعمل الظالمون.

هؤلاء اليهود فعلوا الأفاعيل في غزّة وأحرقوهم، فأين الله؟ وكان شعارهم في سوريا: "يا الله مالنا غيرك يا الله"، قد يخطر للإنسان خاطر: "يا ربّ كيف لا تسمع نداءاتهم؟ وأين الله عزّ وجلّ؟"، وهناك من أصبح لديه مشاكل في الإيمان والاعتقاد، أنّه إذا كان يسمع صيحاتهم ودعاءهم كلّ هذه السنوات، فلماذا لم يستجب لهم؟

قال تعالى: **{حَتَّى إِذَا أَسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا}** (يوسف، ١٠١)، الله يمهّل، ويمهّل، لأمر يعلمه هو عزّ وجلّ، لحكمة يريدّها، ي

قول الله عزّ وجلّ مطمئناً القلوب: **{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}** (إبراهيم، ٤٢)،

وجاء في الحديث: **{ثلاثة لا تُردّ دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام يوم القيامة، وتُفتح لها أبواب السماء، ويقول الله بعزتي لأنصرك ولو بعد حين}** (٣).

٣ أخرجه الترمذي في سننه وقال: حسن

بالأمس كانت الأخبار المفرحة والسعيدة من جانب، والناس يتداولون قصص القدامى من جانب آخر، أحد أولئك القدامى كان ذلك الرجل الذي حُفر له قبر ودُفن حياً، يعني الناس الذين في عمري أو أكبر، قبل ثلاثة عشر سنة تقريباً، يتذكرون هذه الأحداث، عندما دُفن حياً وكانوا يقولون له: "قل لا إله إلا بشار"، لكنّه كان يردّد: "لا إله إلا الله، لا إله إلا الله". كانوا يسبّونه، ويدفنون جسده أكثر تحت التراب، المقطع يبدأ وهو مدفون إلى مستوى الصدر أو أعلى، جسده كلّ مدفون تحت التراب. كلّما تشهّد وقال: "لا إله إلا الله"، كانوا يكّدسون عليه التراب ويصرخون عليه: "قل لا إله إلا..."، لكنّه كان يقول: "لا إله إلا الله، لا إله إلا الله"، حتى مات في مكانه وهو يهّلل. لا يظنّ ظانّ أنّ دم هذا الإنسان ذهب هدراً، لا، لا يمكن ذلك. ولذلك، يقول الله عزّ وجلّ إنّّه يرفع دعوة المظلوم فوق الغمام يوم القيامة، وتُفتح لها أبواب السماء.

تلك الفتاة ذات التسعة عشر عاماً، كلّ دعواتها في ظلمات الليل لم تذهب سدى، ولها من النعيم والأجر ما تراه بإذن الله في عليين، ونسأل الله لها ذلك، لأنّ الله تعالى يقول في سورة الإنسان: {وَجَزَّيْنَهُمَا صَبْرًا ۚ جَنَّةٌ وَحَرِيرًا} (الإنسان، ١٢)،

ما هي الجنّة؟ وما هو الحرير؟ لا يخطر على بالك أقمشة الدنيا أو نعيمها. لكنّ الله تعالى يجازيهم بذلك الصبر الذي صبروه، وبمجرد أنّا نرى وجوههم وهم يخرجون من تلك المآسي، نشعر بحجم الآلام التي قاسوها، شيء ربما أكثر ممّا يمكننا تخيّلته.

إذن، عندما يعرف الإنسان أنّ الله يتكفّل بدعوته ويقول: "وعزّتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين"، يدرك أنّ النصر قد يأتي بدعوة شيخ في مسجد، دعاها في يوم جمعة عام ١٩٨٣، خلال أحداث حماة. هذا الشيخ قد يكون مات، والناس الذين كانوا يؤمنون معه ماتوا، والمطلّون ماتوا، وربّما لم يبقّ منهم أحد، لكنّ تلك الدعوات بقيت مرفوعة إلى الله، يستجيب لها الله عزّ وجلّ في الوقت الذي يراه مناسباً لحكمته ولعباده.

إدّا، أوّلاً: يدرك الإنسان أنّ الله يستجيب لدعوات المظلومين ولو تأخّرت.

ثانياً: لا يمكن إلاّ أنّ يحبّ الله الواحد القهار، لأنّه الغالب الذي لا يُغلب.

الله هو الذي يغلب ولا يُغلب، وعندما تعرف تصريف الله في هذا الكون، لا يمكن إلاّ أن تضع كلّ حملك عليه، ولا تسأل إلاّ الله، ولا تخاف إلاّ الله، لأنّ من يرى كلّ هذه الأحداث ويعلم قدر الله، وكيف يسير الأمور بعينه، يدرك أنّها ليست من تدبير البشر.

لذلك، عندما يعرف الإنسان هذه الحقائق، فإنّه لا يمكن إلاّ أن يحبّ الله عزّ وجلّ، الواحد القهار، الذي يصرف الأمور، ويثق بقدره، ويأوي إلى ركن شديد.

ولذلك، لما حاصر قوم لوط لوطاً عليه السلام وهم يريدون الملائكة ظناً منهم أنّهم ضيوف، قال: {قَالَ لَوْ أَنَّ لِي

بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ} (هود، ٨٠).

فقال النّبِيّ ﷺ معلّقاً على هذه الكلمة بقوله "رحم الله أخي لوط، قد كان يأوي إلى ركنٍ شديد"، أي أنّه كان يعلم أنّ الله عزّ وجلّ هو الركن الشديد الذي يأوي إليه.

أما الأمر الثالث، فعندما يدرك الإنسان أنّ الله عزّ وجلّ هو القهار، فإنّ ذلك يدفعه للتواضع والخضوع لله عزّ وجلّ.

تريد الولد فلا يُرزقك، تريد الصحة فتصاب بالمرض، تريد الحياة فتواجه الموت، فأنت تخطّ وترغب، والله يريد

شيئاً آخر، ومن الذي ينفذ أمره في النهاية؟ الله عزّ وجلّ، وليس بأمر الإنسان.

إِذَا، على ماذا يتكبر الإنسان؟ وعلى أي شيء يرفع أنفه؟ ولماذا يظن أن كل شيء بقدرته أو تدبيره وبحوله وقوته؟ ولماذا يظن أن وراء كل أمر مكيدة؟ يد الله فوق أيديهم، كل شيء بيد الله عز وجل، وتدبير الله عز وجل وحكمته فوق كل تدبير البشر.

كما قال تعالى: {وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ} (الأنفال، ٣٠)، فالمكر قد يكون عظيمًا وكبيرًا، حتى لو كان لدرجة {وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِيَتْرُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} (إبراهيم، ٤٦)، لكن ذلك كله تحت نظر الله عز وجل، فإذا أراد الله عز وجل أن يبطل هذا المكر، فإنه يبطل في لحظة واحدة.

هذه الأيام، رأينا كيف تنهوى دولة كبيرة بكل هذا الضعف وهذه السهولة، ولذلك قال الله عز وجل: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ} (الضحى، ٩)،

تأملوا هذه الآية! حتى الموظف عندك، لا تقهره، نحن مأمورون بالألّا نقهر أحدًا، ليس فقط اليتيم، ولكن لماذا جاء النص على اليتيم؟ لأن اليتيم لا يجد من يحميه، ولأنّه بلا ظهر يعتمد عليه، والغالب أن الناس تستضعفه، فلذلك نصّ عليه القرآن.

قال القرطبي: "خَصَّ الْيَتِيمَ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَا نَاصِرَ لَهُ غَيْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"

وأما الأمر الرابع: التحذير من أن تتصف بالظلم أو القهر، فنحن نعلم أن لله عز وجل أسماء الجمال وأسماء الجلال، فأسماء الجمال كالرحمة والكرم وغيرها، يحب الله عز وجل أن يتصف عباده بها، وأما أسماء الجلال مثل القهر والكبر وغيرها من الأسماء التي تحمل معاني القوّة، فإنّ الله يحب من عباده أن يتذلّلوا له بها. إذن، عندما يكون اسم الله عز وجل "القهار"، فينبغي عليك أن تحذر من أن تقهر أحدًا من عباد الله، أو أي شخص ممّن هم تحت مسؤوليتك.

تأمل النصوص التي جاءت في هذا المعنى، قال النبي ﷺ في الحديث القدسي عن الله عز وجل: [يا عبادي، إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّمًا، فلا تظالموا] (٤)، هذا نص صريح في النهي عن الظلم، فليس لأحد أن يظلم الآخر، سواء كان عاملاً، أو سائقًا، أو موظفًا، أو صديقًا، أو زوجًا، أو أحد أفراد عائلتك. لا يجوز لك أن تظلم أحدًا.

وقال النبي ﷺ في حديث عن أم سلمة رضي الله عنها: [ما خرج رسول الله ﷺ قطّ من بيتي، إلّا رفع طرفه إلى السماء وقال: "اللهم إني أعوذ بك أن أضلّ، أو أضلّ، أو أزلّ، أو أزلّ، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو أجهل عليّ"] (٥)، لاحظ أنّ النبي ﷺ كان يجعل من أذكاره حينما يخرج من بيته أن يستعيذ بالله من أن يظلم أحدًا، أو أن يظلم هو نفسه.

وجاء أيضًا في عواقب الظلم، أنّ الله عز وجل نهى عن المصاحبة مع الظالمين، فإذا كان رفيقك يسرف في الكلام، يفتاب الناس، ويظلمهم، أو يكون سيئ الخلق مع من هم تحت مسؤوليته،

٤ رواه مسلم صحيح

٥ رواه أبو داود، وصححه الألباني

فإنه لا يجوز لك أن تجلس معه وأنت ساكت على هذا الظلم، إلا إذا كنت تنصحه أو تنهاه عن ذلك. والدليل على ذلك قول الله عز وجل: **{فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** (الأنعام، ٦٨)، فإذا عرفت وتبين لك حالهم، فلا تقعد مع القوم الظالمين بعد تذكرتهم.

وأيضاً فإنّ للمظلوم دعوة لا تردّ كما قلنا سابقاً في الحديث: **[ثلاثة لا تردّ دعوتهم: الوالد، والمسافر، والمظلوم، واتقوا دعوة المظلوم، فإنّها ليس بينها وبين الله حجاب]** (١)، وهذا يعني أنه لا يجوز لك أن تظلم أحداً، حتى وإن كان كافراً، فلا تظلمه بأي نوع من الظلم ولا تأخذ حقاً ليس لك.

وقد جاء أيضاً عن الظالمين أنّ صاحبهم لا يوفّق للهدى، بل يظلّ دائماً مأخوذاً إلى الضلال، وهذه من أصعب عواقب الظلم، ألا يهتدي إلى الطريق الصحيح. حتّى وإن كان الظالم يرغب في فعل شيء صحيح، لا يهديه الله عز وجل لذلك،

وتُظهر ذلك حالة الجابرة والسفاحين الذين عندما يريدون أخذ شيء، يزيد ذلك من وبالهم، ولا يهديهم الله إلى الصواب، ولذلك قال الله عز وجل: **{وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}** (آل عمران، ٨٦)، هذه الآيات مهمّة، ونحن نمرّ عليها في القرآن دون أن نتبه لها، لكنّها تُظهر عواقب الظلم لأولئك الذين قهرروا عباده.

وأيضاً من عواقب الظلم أنّ صاحبه محروم من محبّة الله عز وجل. كما قال الله عز وجل: **{وَاللّٰهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}** (آل عمران، ٥٧).

فهذا يعني أنّه ليس فقط لا يهديه الله إلى الهدى، بل إنّ الله عز وجلّ يحرّمه من محبّته، لأنّه لا يستحقّ هذه المحبّة بسبب ظلمه.

أيضاً، صاحب الظلم لا يفلح، أي أنّه لا يحقق النجاح في أيّ عمل، ولا يفوز بأيّ شيء، فالله عز وجلّ لا يمكّن له، قال الله عز وجلّ: **{إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ}** (يوسف، ٢٣)، فمهما حاولوا، ومهما تجبروا، حتى لو مدّت لهم الحياة سنوات طويلة، في النهاية فإنّ أمر الله عز وجلّ سيمضي عليهم.

الظالم وصاحبه أيضاً معرّضان لفضب الله، كما قال النبيّ ﷺ: **[ومن أعان على خصومة بظلم، فقد باء بفضب من الله]** (٧)، هذا الحديث يُظهر أنّ من يساعد ظالماً في خصومة، حتّى وإن كان في موقف شخصي أو اجتماعي، يعرّض نفسه لفضب الله، فإذا كان رفيقك ظالماً، وأنت تعلم أنّه على خطأ، ولكنك تقف معه لمجرد موقف شخصي، فإنّ ذلك يُعتبر إعانة على الظلم ويجلب غضب الله عز وجلّ.

والأخير أنّ الظالم متوعّد يوم القيامة، كما قال الله عز وجلّ: **{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللّٰهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ}** (إبراهيم، ٤٢)، وفي هذا تهديد شديد لكلّ من ظلم.

من أمثلة الظلم التي قد تحدث في حياتنا اليومية، ما يحدث مع امرأة سألت أخرى عن فتاة لخطبتها لابنها. فكان الجواب منها بتشويه سمعة الفتاة، ونشر أمور غير صحيحة عنها، ممّا دفع المرأة لصرف النظر عن الخطبة، ثمّ بعد

٦ أخرجه أحمد في المسند، وقال الألباني حسن

٧ أخرجه أبو داود في السنن، وقال الألباني في صحيح الترغيب صحيح لغيره

ذلك، قامت هي بخطبة الفتاة نفسها لابنها. هذا التصرف ظلم واضح، ويعدّ خيانة للأمانة؛ لأنّ المستشار مؤتمن، وقد علّق الشيخ السعديّ على هذه الآية بأنّها تحمل وعيدًا شديدًا للظالمين، وتسليّة للمظلومين. وقبل أن أنهى، دعني أطرح سؤالًا: لقد رأينا هذه الأحداث أمام أعيننا، وكتب الله لنا أن نعيشها ونراها بشكل مباشر،

فما هو الدور الذي يجب أن نقوم به نحن؟

أذكر على سبيل المثال مقطعًا متداولًا لأطفال مهجّرين من حلب، كانوا في سيارة ويقولون: "ياذن الله، عندما نكبر سنعود إلى هنا ونعمرها"، كانت هذه كلماتهم قبل أربع عشرة سنة، واليوم يكتب الناس أسفل هذا المقطع: "الأطفال كبروا ورجعوا".

أولًا، عليك العودة إلى قلبك وإعادة ترتيبه ليكون ثابتًا وقويًا، فلا تهتز عند أيّ حدث أو ظرف، يجب أن يكون إيمانك راسخًا لا يشكّ في قدرة الله أو نصره أو أقداره، ولا يتساءل عن وجود الشرّ أو تأخّر النصر، بل يثق بحكمة الله وعدله.

ما حصل في الأيام الماضية يجعلنا نستبشر بالخير ونطمئن بأنّ ما يحدث هو من قدر الله النافذ، أرانا حكمته عيانًا، قد تأتي في الأيام المقبلة أحداثٌ لا نعلم إن كانت خيرًا أو شرًا، ولكن ما تحتاجه هو إيمان قويّ، وعقيدة راسخة قويّة وصلبة لمواجهة الأيام المقبلة، لأنّه من الواضح أنّنا مقبلون على أحداث عظيمة، والسنوات الماضية رأينا الأحداث المتلاحقة تشير إلى أنّنا مقبلون على أمور عظيمة، وهذا يتطلّب استعدادًا بتقوية عقيدتك وإيمانك بشكل مستمرّ.

إنّ توبتك من الحرام الذي حرّمه الله عزّ وجلّ واستجابتك لأوامره، يجب أن تكون نابعة من يقين وإدراك حقيقيّ، وليست مجرد لحظة عاطفيّة أو انفعال حماسيّ، التوبة ليست نتيجة للحنن المؤقت أو التأثير اللحظيّ الذي يدفعك للبقاء أو لاتخاذ قرار سريع دون أساس متين، عليك أن تدرك أنّك في سباق مع الزمن ومع الأحداث المتسارعة.

عندما أسلم خالد بن الوليد، أرسل له أخوه رسالة يقول فيها: "يا أخي، أسلم والحق، فإنّه قد فاتتك مواطن صالحة"، وكان أخوه قد سبق في الإسلام، تأخر إسلام خالد إلى ما بعد صلح الحديبية، أي في السنة السابعة من الهجرة، بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة النبوية، وسبع سنوات من الهجرة، وعندما أسلم، سأله النبيّ ﷺ: [ما الذي أخرجك يا خالد؟] - لماذا تأخرت؟ ماذا كنت تفكر؟ - "قد كان لك عقلٌ رجوت ألاّ يسلمك إلّا إلى خير" (٨)، النبيّ ﷺ أعرب عن ثقته بعقل خالد، وأوضح أنّه كان يتوقع أن يقوده عقله إلى الخير في النهاية، لكن تساءل عن سبب التردّد الطويل الذي أحرّ اتخاذ القرار، وبعد إسلامه، عوّض خالد تأخّره بأعمال عظيمة في غضون شهرين فقط، خاض معركة مؤتة، حيث قال: "تكرّست في يدي تسعة أسياف من حديد"، رأيتم من يدخل متأخرًا ويشعر أنّه يريد التعويض واللاحق بما فاتته، فيعمل بجدّ وإصرار ليصل إلى ما ينبغي.

لذلك، يجب أن تكون توبتك نابعة من قناعة عميقة، وليست مجرد استجابة للحظة عاطفيّة أو تأثير مؤقت، إذا كنت تدرك أنّ هذا الطريق هو الحقّ، وأنّ هذا القرار هو الصواب، فلا تتأخّر في اتخاذه.

لماذا هذا التردد؟ وهل نتظر مثل ما أصاب الذين من قبلنا مستهم البأساء والضراء؟ هل يتخيل أحدنا أن نبقي في رعد العيش إلى أبد الآبدين؟ ألا تعرف سنن الله عز وجل؟

ما من أمة عبر التاريخ بقيت في نعيم دائم، لا الفراعنة، ولا عاد، ولا ثمود، ولا الذين نحتوا الجبال، انظر إلى أهل الشام وأسألهم، أي نعيم كانوا فيه؟ من أهلنا من زار الشام قبل الأحداث بسنوات، كانوا يتحدثون عن شوارعها التي تنبت شجر البرتقال، وعن البرتقال الذي يلقى في الطرقات من كثرة الخير، هؤلاء الذين كانت شوارعهم تفيض بالخيرات من الفاكهة وغيرها، هل تخيلوا يومًا أن يبيتوا جوعى؟ أو أن تضربهم المجاعات؟ لا أظن، فالشعوب العربية هي سلّة الفاكهة على هذه الأرض، لكن أقدار الله نافذة على الجميع.

فماذا نتظر؟ ما الذي لا يزال يؤخرنا؟ هل نتظر أن نكبر ونعجز؟ أن تنتهي الدنيا أو الفتن؟ الفتن لن تنتهي أبدًا، والمغريات لن تزول، هي باقية، لكنّ السؤال الحقيقي: لماذا لا تزال متأخرًا عن ركب الصالحين؟ لماذا لا تزال مترددًا بين نصره دين الله، وأن تكون في ركب عباد الله الصالحين؟ لماذا لا تزال حائرًا؟ مازلت بين ركب الشيطان وما بين الله عز وجل.

إذن، الأمر الثاني هو إحسان الظنّ بالله عز وجل، ثم إبرام عقيدة القلب على الإيمان به، والنقطة الثالثة هي أن تسرع في التوبة إلى الله عز وجل.

أيضًا، هناك شيء آخر مهم يجب أن نتذكره: لا شيء يدوم.

هذه فكرة غالبًا ما يعتقدها الإنسان، ولكنّ الحقيقة أنّ كلّ شيء في الدنيا زائل. كما أنّك تحتاج إلى التوكّل على الله؛ وهو جزء من العقد القلبي الذي يجب أن ترسخ به إيمانك.

ومن النقاط المهمة أيضًا تجديد النية. على سبيل المثال، شيخ الإسلام ابن تيمية كان يقول: "إنّي لأجدد إسلامي في كلّ حين، ولا أجد أنّي أسلمت إسلامًا جيّدًا"، شيخ الإسلام ابن تيمية الذي نكرّر دائمًا الحديث عن سيرته وأعماله، يقول: "إنّي لأجدد إسلامي في كلّ حين"، أي أنّه كان يشعر بحاجة لتجديد إيمانه يوميًا، كأن يفعل ذلك مع أذكار الصباح والمساء، وكأنّه كلّ يوم يعلن شهادة التوحيد، "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله"، كأنّه يدخل في الإسلام من جديد. كان يشعر أنّه رغم إيمانه العميق، لم يصل بعد إلى درجة الإسلام الكامل، لذلك، كان يعتقد أنّ إسلامه يحتاج إلى تجديد مستمرّ.

إذًا، إسلامي وإسلامك، وإيماني وإيمانك، أي نوع هو؟ إسلام مرّقع وناقص؟ أو هو إسلام صحيح وجاد؟ ما يهمّ في النهاية هو ما في قلبك من إيمان حقيقي، وأن تسارع في إصلاح حياتك بما يتوافق مع هذا الإيمان. وهناك أن تبحث عن مشروع تنصر فيه دين الله عز وجل، يجب أن تحدّد في أيّ مجال يمكن أن تساهم، وما الذي يمكنك فعله.

أطرح هذا السؤال لأننا شهدنا في الفترة الأخيرة أحداثًا جعلتنا نتساءل: من هؤلاء الأشخاص؟ من أين جاءوا؟ وكيف تمكّنوا من هذا الإعداد؟

في هذا السياق، لا أملك إجابة شافية على هذه الأسئلة، ولكن ما أعرفه من بعض الأصدقاء والمعارف الذين كانوا يعيشون هنا في السعودية، وبعد اندلاع هذه الأحداث، عادوا إلى أهاليهم في المخيمات في الأردن وغيرها،

وأصبحوا جزءًا من هذا المشروع الكبير، تركوا حياة الرفاهية التي كانوا يعيشون فيها، وانتقلوا للعيش في المخيمات، حيث بدأوا يعملون في تعليم الأطفال هناك، فتحوا المدارس لتعليمهم، بينما تخصص البعض منهم، مثل الأطباء أو المعالجين النفسيين، في معالجة الأطفال نفسيًا.

هؤلاء الأشخاص، رغم أنهم عاشوا حياة مترفة في السابق، إلا أنهم اختاروا أن يكونوا جزءًا من هذا المشروع العظيم، على مدى ثلاثة عشر عامًا، عملوا على بناء الناس إيمانًا من خلال حلقات القرآن أو عبر منصات مثل الزوم، فكانوا يبنون مع هؤلاء الأطفال ويعدونهم إعدادًا نفسيًا وإيمانيًا، حتى لا تنهزم أرواحهم، أو يعيشون حالة نفسية سيئة بسبب ما مروا به من مجازر وقصف، هؤلاء الأطفال الذين خرجوا من تحت هذه الظروف الصعبة، يجب أن يكونوا قادرين على العيش بشكل سوي، فلولا فضل الله عز وجل، ثم بذل أولئك الذين لا يعرف الناس أسماءهم، الذين تركوا كل شيء وراءهم، لكان الوضع مختلفًا، هؤلاء المعلمات اللواتي درّسن في خيام الزعتري أو في مخيمات لبنان والأردن، لا يعرف أحد أسماءهن، لكنهن هجرن بيوتهن، وتركوا أحفادهن وأزواجهن، وذهبوا ليلذلن جهدهن هناك.

على الرغم من أننا لم نختبر بمثل هذه الحياة الصعبة، إلا أننا ما زلنا قادرين على بذل ما نستطيع في حدود إمكانياتنا. السؤال هنا هو: ماذا تستطيع أن تفعل؟ وأين هو دورك؟ وهل سيبقى دورك دائمًا في موقع المتلقي، تسمع وتراقب فقط؟ أم أنك ستأخذ زمام المبادرة؟

مثلًا، إذا كان لديك أطفال صغار، يمكنك أن تعلمهم القرآن، أو تروي لهم سيرة الأنبياء، أو تعلمهم أسماء الله الحسنى. كل هذا يمكنك أن تفعله بشكل بسيط، مثل تخصيص يوم واحد في الأسبوع لذلك، ولا يعجزك ذلك. إذا كنت تحب أن تعمل مع كبار السن، يمكنك تنظيم لقاءات أو حلقات معهم،

النقطة الأساسية هنا هي أن يكون لك مشروعك البنائي الذي يفيدك ويفيد الآخرين، أحيانًا نبحث عن رفقة صالحة لنقتدي بها، لكن لماذا لا تكون أنت الرفيق الصالح؟ لا أحد منا كامل، ولكن يجب أن نعمل على إصلاح أنفسنا، وألا نتصع أمام الناس، نصلح أنفسنا أولًا، ثم نساعد الآخرين على إصلاح أنفسهم، فهل تستطيع فعل ذلك؟ وكيف يمكنك أن تساهم في خدمة هذا الدين من خلال مكانك، مهاراتك، ومواهبك التي منحك إياها الله عز وجل؟ أي شيء تستطيع أن تنفع به فافعله.

لكن أجب على هذا السؤال، وحاول ألا يمر عليك هذا اليوم إلا وأنت تسأل نفسك: ما هو دوري في الحياة؟ وما الشيء الذي يمكنني أن أنفع به غيري؟ ولا ينبغي أن تكون هذه الأحداث مجرد موضوع للتعجب أو متابعة الأخبار، دون أن تترك أثرًا في قلبك، سواء في حب الله عز وجل، أو في تعزيز الإيمان بأن يد الله هي الغالبة. وأيضًا، وجه هذه الرسالة لنفسك: ماذا عني أنا؟ ماذا يمكنني أن أفعل قبل أن يحدث ما يحدث؟ هذا ما عندنا،

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتتناسب القراء وبما لا يخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها